

زهرة إدريس

جامعة الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

ملحقة بالأبحاث

جدلية الضعف البشري والقوة الإنسانية
في روايات حنامينه (المرأة نموذجاً).

أ- جدلية الضعف البشري والقوة الإنسانية في أعمال "حنامينه":

كتب الأديب "سعيد حوارنية" في مقدمة كتابه، عبارة إهداء لصديقه "حنامينه":
 "إليك يا حنامينه، يا من فهمت ماهية الضعف البشري والقوة الإنسانية..."¹.

بعبارة الإهداء هذه، سنحاول أن ندخل عالم حنامينه، ونعرف مدى قدرته على فهم النفس البشرية، بقطبيها المتناقضين الضعف والقوة. "وإن كان فهم هاتين الصفتين أمر ينوء كتف المرء في حمله حتى ولو كان كتف كاتب خبر الدنيا"² مثل "حنامينه".

تعلق الدكتورة "نجاح العطار" على هذه العبارة: "إن صفة الفهم المطلق للنفس البشرية أمر يستحيل تحقيقه، لأنه من المحال إدراك سر هذه النفس الفردية الجماعية المحدودة واللامحدودة في الإنسانية"³.

ولأن نظرة الإنسان للإنسان متغيرة بتغير العلاقات الاجتماعية السائدة في كل عصر، فإن النظرة الشاملة والمطلقة، تصبح نسبية، لأننا كما قال "واطسن":
 "لا نستطيع أن نعرف شيئاً عما يعتمل في نفوس غيرنا من الأفراد، وإنما نستنتج كل شيء من سلوكهم"⁴.

"وإن استطاع الإنسان أن يحقق هذا الفهم المطلق، فسيكون قد توصل إلى فهم الوجود فهماً كاملاً، وأورث هذا الفهم لمن بعده، فصار الوجود كتاباً مقروءاً منتهياً"⁵.

ولهذه الاعتبارات المنطقية، أرى أن "نجاح العطار" تميل إلى تجريد العبارة من عموميتها وتلبسها لباساً أنسب يليق بقدرات الإنسان على فهم الإنسان، موضوعياً وفي حدود بيئته وعصره، وشخصه، وهذا ما يتجسد منطقياً في أعمال "حنامينه" الروائية، وقد عبر عن هذا الفهم بدلالات مستخرجة من أعماله، ونخص بالذكر "رواية بقايا صور"، عن صفتين متناقضتين متصارعتين، دوماً أو أحياناً، داخل النفس البشرية أو خارجها، هما الضعف والقوة:

لا شك أن الضعف البشري تحدده مواقف وانفعالات عدة متمثلة في الخوف والعجز والسلبية في حالة الضعف، ونقيضها القوة، المتمثلة في القدرة والعزيمة في مواجهة التحديات.

إن جدلية الضعف والقوة، والخوف والجرأة في أعمال "حنامينه" تحددها المواقف والظروف الحياتية لشخصيات الرواية، وعلى أساسها انبنت كل الأفعال

وردود الأفعال لدى هذه الشخصيات، "بل إن هذه الجدلية تشكل العطاء الأساسي للديناميكية الحياتية، بكل زخمها وسيولتها، بكل بساطتها، بكل ضراوتها ولينها"⁶.

ومهما حاول الكاتب أن ينفي جانب الضعف والخوف عن شخصه، غير أن القارئ سوف يقع على الصراع الجدلي في كثير من أعماله، ويظهر بارزاً ليس على المستوى الحياتي فقط، ولا بين نماذج لشخصيات مختلفة في عمل روائي واحد، بل في الذات الواحدة المعذبة لإنسان تمزقه اعتبارات كثيرة، وتحول بينه وبين أهدافه معوقات شخصية واجتماعية وحياتية شديدة التعقيد⁷.

إن الخوف يشكل في الرواية فضاء واسعاً ينبعث من عشرات الكلمات والدلالات -لو أحصيناها- على امتداد العمل الروائي، وعلى الرغم من سيادة عنصر الخوف، فإننا نجد في مقابل ذلك، مجموعة من المواقف المناقضة لهذا الخوف، والمتمثلة في الجرأة.

"لئن كان الخوف في "بقايا صور" يفضل في عدد كلماته، ويزداد كمًّا في أحداثه، فإن الجرأة، حتى في قلة الكلمات الحرفية لها، تكتسب حسماً في وقعها"⁸. وقد تجسدت هذه الثنائية المتضادة في أبرز شخصيات الرواية، وهما "الأم" أم الراوي، وشخصية "زنوبة".

ب- خوف الأم:

الأم تمثل قمة التجسد للخوف المرعب: الخوف من الجوع، الخوف من العزلة والوحدة، الخوف من الشتاء وقساوته، والخوف من المختار وتهديداته، وغيرها من المواقف الكثيرة.

إن عناصر الخوف كلها مجتمعة، تشكل تهديداً على كيان أسرتها، وعائلتها الصغيرة. فخوف الأم في "بقايا صور" خلقته ظروف خاصة وعامة، من جملة هذه الظروف غياب الوالد المستمر، وهي معزولة عن العالم في كوخ هش، تقف الليالي المتتالية، "منصتة إلى عواء الكلاب أبناء آوى، والريح والمطر"⁹ فلا يغمض لها جفن، ولا يرتاح لها بال.

ويروي المؤلف عن ليالي الوحدة والوحشة اللامتناهية في غياب الوالد: "كان سهرنا معها يعطيها بعض الشجاعة في مواجهة خوف يتمطى عبر الحقول، يزار مع

لماء الأساسي
أوليتها⁶.

خوصه، غير
ر بارزا ليس
وائي واحد،
وبين أهدافه

ت الكلمات
م من سيادة
لهذا الخوف،

داد كمًا في
في وقعها⁸.
ما "الأم" أم

ف من العزلة
، وغيرها من

تأ، وعائلتها
من جملة هذه
تقف الليالي
يغمض لها

الوالد: "كان
ول، يزأر مع

الريح (...) ويزحف صامتاً كالمهل، فتلتقطه حواسها، وتتيقظ بحفلة، متوقعة في كل لحظة أن تسمع نقبا في الجدار أو طرقا على الباب".

إن الخوف الذي سكن نفسها المرهفة المنكسرة، كانت مدفوعة إليه دفعا بحكم العزلة المفروضة عليها "فكان الكوخ أشبه بخيمة في قفر"، وكذا الإحساس بالخطر المهدد، فاللصوص حول الكوخ يحومون، على غرار الذئب، ووسط تلك الظلمة والسكون "لا يبقى من الأم إلا عينان خائفتان تدوران أبداً على الجدران، وأذنان منصتتان وأعصاب تعب، ومتوترة وليل طويل ومطر"¹⁰.

يبدو أن قدرها أن تعيش هذا الخوف باستمرار، فإن لم يكن من الذئب واللصوص، ليلاً، فشبح الجوع يلحقها ليهدد صغارها، أو ظلم المختار وقساوته. وأمام هذا الخوف الطاعني السائد، سرعان ما كان ينبعث من روحها، ما يشبه القوة والشجاعة: قوة خفية، شجاعة محتشمة لعل مصدرها، الإصرار على البقاء، لا بقاءها هي، بل بقاء "من تركتهم وراءها".

لذلك وقفت في وجه المختار عندما طلب منها أن تحضر ابنتها التي لم تتجاوز العشر سنوات - لتخدم في بيته، مقابل ما كان يطالبهم من دين: "وقفت الأم ولم تخف، ضربها وشتمها ولم تخف، جرّها إلى الزريبة وقفل عليها الباب"¹¹ فلم تخف.

غير أن الصمود المؤقت والجرأة الخفية سرعان ما تلاشيا أمام الخوف المهيمن والمسيطر، لأن من حبسها لم يكن "مختاراً"، ولم يكن فرداً، كان حكومة، كان ملاكاً "وماذا تستطيع الأم الصغيرة أن تفعل مع الحكومة".

إن أقسى ما يتعرض له الإنسان في الوجود، هو الإحساس بالضعف، ضعف قد يتزل به إلى أدنى الدرجات، فلا يميزه عن أضعف مخلوق سوى الكلام والقدرة على التعبير، وكم مرة رددت على مسامع الطفل هذا الكلام: "أواه على قلب الأم، أواه على قلب هذه العصفورة المسكينة، وهي ترى الخطر يحيق بفراخها، التي لم تنبت أجنحتها، ولما تبرح العش، أنا رأيته في حقلنا، وكنت مثلها في السعي لإطعامكم ومثلها في السعي لإنبات ريشكم، مثلما في الخوف عليكم قبل أن ينبت هذا الريش وبعده"¹².

إن خوف الأم في بقايا صور يبرره سلبية الوالد الذي ظهر غير قادر على تحمل نصيب من المسؤولية، فوجد في الرحيل ملاذاً له، وفي الخمر والجنس وسيلة للهروب من الواقع.

بالإضافة إلى هذه الظروف الخاصة، فإن المناخ العام الذي فرضته عوامل كثيرة، منها الأزمة الاقتصادية الخانقة، الحكم الإقطاعي.

إن هذه الظروف كلها مجتمعة، قد انعكست على شخصيات الرواية عموماً وشخصية الأم على وجه الخصوص، فجاءت بالصورة التي هي عليها من استسلام ولا مبالاة.

فالخوف إذن، لم يكن فردياً، بل كان جماعياً، لأن وجوده لم يقتصر على الأم فحسب، بل في معظم شخصيات الرواية، التي مورس عليها الظلم وذاقت مرارة الحياة.

"ومن هنا فإن القراءة الاجتماعية للرواية تجد مبرراتها حين نحاول أن نبحث عن الخوف وجذوره في إطار نظام اجتماعي يصادر حرية الفرد منذ الولادة".

إن "الضعف" يعني بالضرورة "السلبية"، غير أن سلبية الأم في الرواية هي شكلية، فالخوف من القدر ما كان عائقاً، بل كان دافعاً نفسياً أيضاً، لأن الأمومة أقوى منه، فهي الطاقة العجيبة التي جعلتها تواصل صمودها وعطاءها، ولهذا لا يمكن أن نعتبر "الأم" شخصية "سلبية" بالمعنى الصحيح.

فإذا كان للخوف تبريره على المستوى الاجتماعي، فإنه على المستوى الفني سيكون أكثر وضوحاً، إذا قارنا بين موقف الأم وهي البطلة الأولى في الرواية، وموقف "زنوبة" والأرملة المتميزين.

ج- قوة الأرملة وجرأة زنوبة:

إن الجرأة بمعناها الإيجابي والسليبي، هي التي حددت شخصية "زنوبة" ثم الأرملة، جرأة مئزها الطيش والاستهتار مثلما مئزها النبل والإنسانية والتحدي للظلم.

إن الجرأة بمعنى الشجاعة والإنسانية، هي التي أنقذت الأسرة من شبح الموت، هي التي تحدت المختار والدرك، ودفعت الفلاحين إلى الثورة. لا شك أن الموقفين: موقف الأرملة وزنوبة - جاءا متممين لا متناقضين لمشاعر الأمومة، متجاوزين لها

بر قادر على
لجنس وسيلة

ضته عوامل

رواية عموماً
من استسلام

مر على الأم
رارة الحياة.

أن نبحت
لادة".

الرواية هي
لأن الأمومة
نا، ولهذا لا

ستوى الفني
في الرواية،

"ثم الأرملة،
م.

شبح الموت،
أن الموقفين:
نجاوزين لها

في آفاق أسمى وأعنى. إن جدلية الخوف والجرأة، أو القوة والضعف في النفس
لواحدة أو في النفوس المتقابلة، هي ذاتها جدلية الصراع على المستوى الاجتماعي:

فزنوبة في تحديها للإقطاع لا تتصرف كفرد، لأن الروح الجماعية تنتقل منها
إلى الفلاحين بشكل واضح في نهاية الرواية.

"إن (حنامينه) في "بقايا صور" لم يقدم شخصيات تاريخية بل قدم إنساناً
تاريخياً (...) لأن الإنسان التاريخي هو الذي يعكس كل الصفات الخاصة والمميزة
لعصره (...). إن الإنسان التاريخي في هذه الرواية بكل ما تكلل به شخصيته من
بؤس تراجيدي، وما يختلج في أعماقه من أحاسيس الخوف والانحدار.... إن بؤسها
التراجيدي هذا بؤس تاريخي لا ينظر إليه على أنه بؤس الإنسان الأعزل المحكوم
بقانون عزلته المطلقة. إن خوفها ليس هو الخوف الأزلي المتمخض عن هذا
الصراع.... بل هو خوف الإنسان غير المدجج بشروط إنسانيته (...). والقلق
الذي يحكم الشخصية (الأم والأطفال) ليس قلقاً وجودياً يعمّ مظاهر الحياة
ويحكمها فلسفياً، بل هو القلق الناتج عن اغتراب الفعالية الإنسانية عن محاور
نشاطها، ضعف الطاقة البشرية في مكافحة ضرورة حمقاء، قلق البدائية الإنسانية
وعجزها عن حل لغز الاستعصاء في الطبيعة والمجتمع"¹³.

Résumé:

«A toi Hanna Mina qui a pu saisir, l'essence de la faiblesse et de la force humaine ». Ainsi avec cette éloquente phrase Said Horania dédia son livre à son ami Hanna Mina.

Nadjah el-Attar rétorqua: que la compréhension des profondeurs absolues de l'âme humaine est une entreprise difficile à concrétiser, Parce que tout simplement l'homme n'est jamais ce qu'on croit qu'il est, mais on dépit de toute cette inextricable mission, Hanna Mina réussit inlassablement à s'immiscer dans les ténèbres profondes des femmes de ses romans en essayant de les appréhender telles qu'elles sont dans leur contexte social économique et religieux, dans leur allégresse aussi bien que leur détresse, en justifiant parfois leurs actes et leurs impulsions, tout en démontrant leurs forces de caractère indispensables à leur survie dans un milieu de dénuement extrême, hostile à toute forme de liberté .

الهوا

(1)

(2)

(3)

(4)

المصير

(5)

(6)

(7)

(8)

(9)

(10)

(11)

(12)

(13)

الهوامش:

- (1) نجاح العطار: "مقدمة الرواية بقايا صور"، (ص 6).
- (2) نفس المصدر: //
- (3) المصدر السابق.
- (4) مقالات في علم النفس، محمد مصطفى الشعيبي، ط 2، 1963، مكتبة النهضة المصرية (م.ط.ن).
- (5) نجاح العطار، مقدمة "بقايا صور"، (ص 06)
- (6) صرح بذلك في مجلة المعرفة، العدد 146/ السنة 1974.
- (7) الرواية: ص 07 (مقدمة الرواية).
- (8) المصدر نفسه، (ص 42).
- (9) الرواية (ص 100).
- (10) المصدر نفسه (ص 110)
- (11) أنظر "بقايا صور": (ص 129).
- (12) بقايا صور، (ص 131).
- (13) عبد الرزاق عبد: عالم حنامية الروائي، (ص 129-130).

Résumé

«
la fo
dédi
N
abso
Parc
est,
réus
femr
sont
allég
et le
indis
host